الفصل الثاني

أسس التربية في الإسلام

من المفيد أن نستقرىء القرآنَ والسُّنَّة؛ لنستمدَّ منهما أسسَ التربية الإسلامية؛ التي تُمثِّل المرتكزات الأساسية لبناء التربية، وتشييد صرحه العتيد، بعيداً عن الأقوال أو النظريات، فالتربية بالآيات والأحاديث هي الأصل لتوجيه الإنسان، وتحديد مساره، وتوجيهه في سلوكٍ بنَّاء، يتنامى مع الزمن، فيبني معالم الإنسان، ويرسم جوانب المجتمع.

وأهم تلك الأسس التي تقوم عليها التربية في الإسلام:

(أ) أساس العقيدة الصحيحة والإيمان العميق:

ترتبط التربية بالعقيدة، حيث إنَّ الإسلام حقائق ثابتة، تتمثَّل بجملة مبادىء تقوم عليها، وتُبنى وفقها، من خلال مناهج عملية، لتحقيق أهدافٍ مأمولة، ولذلك يتبدَّى الإيمان مقترناً بالعمل في كثير من الآيات القرآنية. يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦][1]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

فالعملُ في الإسلام مظهرٌ للإيمان الصحيح، وتجسيد عمليّ له، ومعيار حقيقي يتجلى من خلاله الإيمان الصادق، المنبعث من القلب المخلِص؛

---

(١) ﴿وُدًّا﴾: مودة ومحبة في القلوب.

ولذلك ذمَّ الله تعالى الذين يفرِّقون بين القول والعمل ، ولا يُترجمون إيمانهم حقائق تنداح في الواقع ، فقال عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣][1]. وقال تبارك وتعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وأكَّد القرآن الكريم على فَلاح المؤمن العامل ، الذي يقرنُ بين إيمانه وسلوكه؛ إذ الإيمان الحقيقي والعمل الصالح أمران مترابطان لا ينفصمان. قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ضرورة الربط بين الإيمان الصادق والسلوك المترجِم لذاك الإيمان ، فيقول ﷺ من خلال توجيهاته الحكيمة ، وتربيته المستقيمة: «لا إيمانَ لمن لا أمانَة له ، ولا دينَ لمن لا عهدَ له»[2].

وجَعَل رسول الله ﷺ أذية الجار من كبائر الذنوب ، ومن الشرور العظيمة؛ التي تُخْرِج مرتكبها من حظيرة الإيمان ، وتُحبط ثواب أعماله الصالحة؛ فقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جاره»[3].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «واللهِ لا يؤمن ، واللهِ لا يؤمن ، والله لا يؤمن» قيل: مَنْ يا رسولَ الله؟ قال: «الذي لا يأمَنُ جارُه بوائقَه»[4].

---

(١) ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: عظم بُغْضاً بالغ الغاية.

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٣٥ و١٥٤ و٢١٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ١١) وابن حبان (١٩٤) والبزار كما في كشف الأستار (١٠٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٨٤٩ و٨٥٠) والبيهقي (٦/ ٢٨٨ و٩/ ٢٣١).

(٣) رواه البخاري (٦١٣٦ و٦١٣٨) ومسلم (٤٨).

(٤) رواه البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٤٦).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن الذي يشبعُ وجاره جائع»[1].

والإيمان الجيد له أثر كبير في حياة الإنسان وسلوكه، مما يدفعه إلى اجتناب الرذائل، والبعد عن الشرور والغوائل. قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهْبة ذات شَرَف، يرفعُ الناسُ إليه فيها أبصارَهم حين ينتهبُها وهو مؤمن، ولا يَغُلُّ حين يَغُلُّ وهو مؤمن، فإياكم إياكم، والتوبةُ معروضةٌ بعد»[2].

قال ابنُ عباس: يُنزع منه نورُ الإيمان[3].

ونلحظ أن التربية في الإسلام تربط ربطاً محكماً بين العقيدة والإيمان وبين الفعل والسلوك، فالعقيدة هي المرآة التي ينعكس كل فعل فيها، فبمقدار إيمان الإنسان تتجلى أعمالُه الصالحة والطالحة، ويبرز سلوكُه واضحاً للعيان. وكلما أحسّ المرءُ بمراقبة الله تعالى له، وأنه ـ عز وجل ـ مطّلع عليه، ناظر إليه، عالم بكل ما يقوم به، وما يدور في خَلَده، كُلَّما تحسَّن سلوكه، وتْرْجِم أعمالاً صائبةً، وأفعالاً خيِّرَة، فالإيمان له فعالية لا تُحدُّ في توجيه السلوك الإنساني نحو الأفضل والأجدى والأنفع، ونَبْذ كل ما هو شرٌّ وانحراف عن جادَّة الصواب.

وها هو القرآنُ الكريم كتابٌ مفتوح للجميع، فيه النور الباهر، والهداية الجليَّة، والطريق المستقيم إلى خالق الكون والحياة والأحياء، يقول عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

---

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٧) وأبو يعلى (٢٦٩٩).
(٢) رواه البخاري (٥٥٧٨) ومسلم (٥٧).
(٣) رواه البخاري تعليقاً (١٢/ ٥٨).

وفي نصوص القرآن أحكام وتكاليف ، وأوامر ونواهٍ ، وقوانين مسطورة ، وقد جاءت كلُّها لتربِّي الإنسانَ ، وتحقق العبودية الصحيحة لخالق الحياة .

وها هي الآيات القرآنية تحثُّ على اتباع ما جاء في الكتاب الحكيم ، وتمثُّله في الواقع ، لينتشر الحق ، ويعلو الخير ، وتسري الطمأنينة في النفوس ، وفي نواحي المجتمع ، فيسعد البشر بنعمة الله تعالى؛ إذ يتَّبعون أوامر الخالق ، وينتهون عما نهى عنه وزجر . قال سُبحانه : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣] .

ثم إنَّ القرآن الكريم هو الحكم الفصل في أمور الحياة كلها ، فهو يُبيِّن مقاييس الخير والشر ، ويُوضِّح مسائل الحلال والحرام ، ويرسم حدود المنهيات . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧][1] .

ومَنْ آمن بالقرآن الكريم كتاباً مُنزَّلاً من عند الله عز وجل ، وأنه هو الهدى والنور الواضح ، وطبَّق أحكامه ، واتَّخذه نبراساً لحياته ، واحتكم إليه ، فإنه يفوز بخيري الدنيا والآخرة ، إذ يسير وفق الطريق الحق ، والهداية المنيرة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . قال عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

[النساء : ١٧٤ ـ ١٧٥] .

---

(١) ﴿ إِصْرَهُمْ ﴾ : عهدهم بالقيام بأعمالٍ ثِقال . ﴿ وَٱلْأَغْلَٰلَ ﴾ : التكاليف الشاقة في التوراة .
﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ : وقّروه وعظّموه . =

وآيات القرآن الكريم كلها وسائل تربوية ، تُوجِّه الإنسان نحو التأمل والتفكر والاعتبار ، وتُحدِّد السلوك المستقيم ، وتبني العقيدة الصحيحة ، وتغرس الإيمان العميق ، ومن تلك الآيات ما هو دليل على قدرة الله عز وجل ، وبرهان ساطع على مِنَنه العظيمة ، وفضله الذي لا يُحدُّ ، قال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٣ ـ ٣٦][1] .

ونبَّه عز وجل على ضرورة التفكر في مخلوقاته؛ التي تدل دلالة لا مريةَ فيها على وجود الله تعالى ، وتفرُّده ـ سبحانه ـ بخلقها وإيجادها ، وهذه المخلوقات توحي بالتدبر والتأمل؛ كخَلْق آدم من تراب ، ومراحل خَلْق الإنسان ، وجعل بني البشر أزواجاً ، وهيّأ الزواج على أساس المحبة والرأفة ، كما أنَّ خَلْق السموات والأرض واختلاف اللغات والألوان ، وجَعْل الليل للنوم والراحة؛ والنهار لابتغاء الرزق ، إلى جانب رؤية البرق ، ونزول المطر ، وإحياء الأرض بعد أن كانت هامدة ، كل ذلك آيات تربوية ، تغرس العقيدة الصحيحة ، وتدعو إلى الإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

---

(١) ﴿ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ : الأصناف والأنواع .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٠ ـ ٢٥][1].

وهذه الآيات وغيرها دعوة صريحة للعقل البشري كي يتملَّى ما حوله، ويبحث في الآيات الكونية؛ ليدرك نشأة الحياة، وتطوراتها، وغايتها، ومصير الكون... وكل ذلك له أهمية كبرى في تحديد النشاط الإنساني، والسلوك البشري، فإذا أدرك المرءُ أن الله عز وجل خَلَق كل شيء، وأن هناك يوماً آخر للحساب، وكل قول أو فعل له جزاؤه يوم القيامة، فإنه يستشعر رقابة الخالق المولى، ودوام اطلاعه، وأزلية علمه، فإذا به يتَّجه بقلبٍ خاشع، ولسان ضارع، واعتقاد لا يشوبه الريب، إلى الله تعالى، الواحد الأحد، وعند هذه النقطة تتضح عقيدة التوحيد، والاتجاه الإيماني الصحيح، واعتقاد أن الأمور تجري وفق المشيئة الإلهية في جميع الاتجاهات والنشاطات.

إنَّ الآيات القرآنية تربِّي الإنسان بشكل فعَّال عملي، بقصد تزكيته، وتعزيز سلوكه وتحقيق الأهداف المنشودة. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤][2].

ومن ألوان هذه التزكية:

* **تزكية النفس**: فعلى الإنسان أن يجاهد نفسَه؛ كيلا يقع في حمأة الانحراف، أو مستنقع الجنوح عن القيم الفاضلة، وينظر إلى المعصية على أنها جرحٌ كالأخدود، له آثاره ونتائجه، إذ تجلب المعاصي ووخيم العواقب في الدنيا والآخرة، بينما ترتقي الطاعةُ بصاحبها إلى معارج الخير والصواب، إذ يستقيم على الجادة، ويرى بأمِّ عينيه مثوبة عمله الطيب خيراً وفلاحاً في الدنيا، وحسنات وجنات عند رب العالمين.

---

(١) ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾: لتميلوا إليها وتألفوها.

(٢) ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تطهَّر من الكفر والمعاصي.

ولا تتحقق تزكيةُ النفس إلا بالحب لله تعالى ، ولرسوله المصطفى ﷺ ، فمن ثمار التربية القرآنية: سِمة الحب بين العبد والرب. قال عز وجل: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى أكون أحبَّ إليه مِنْ ولده ووالده والناس أجمعين»[١].

* **تزكية العقل**[٢]: وتتكوَّن عملية تزكية **العقل** من أمرين:

الأول: تزكية العقائد والأفكار ، وذلك بتفريغ العقل من كل الخرافات والأوهام والمعتقدات؛ التي لم تقم على برهان أو دليل ، مثل: نفي تعدُّد الآلهة ، وتزويده بالمعتقدات الصحيحة عن نشأة الخَلْق والإنسان والكون والحياة والمصير.

والثاني: تزكية أساليب التفكير ، مثل:

ـ تدريب المتعلِّم على النقد الذاتي بدل التفكير التبريري.

ـ تدريب المتعلِّم على التجديد بدل التقليد.

ـ تدريب المتعلِّم على التفكير العلمي بدل الظن والهوى.

ـ تدريب المتعلِّم على التفكير الجماعي بدل الفردي.

* **تزكية الجسم**: حيث أباح الله تعالى للإنسان أن يتمتع بالطيبات ، ويهنأ بالزينة المباحة وفق مقاييس الشرع واعتباراته ، قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

كما بيَّن اللهُ تعالى أن النكاح عبادة حين يكون قائماً بشكله الصحيح ، فقال سُبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣][٣].

---

(١) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

(٢) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ، للدكتور ماجد الكيلاني (٤٤).

(٣) ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾: مَزْرَع الذرية لكم. ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: كيف شئتم ما دام في القُبُل.

كما أوضح القرآنُ الكريم ضرورة الابتعاد عن الإسراف ، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

وإن التزكية بألوانها الثلاثة: النفس والعقل والجسم؛ تهدف إلى تكوين الفرد المتزن ، ذي السلوك الجيد الجديد ، فيتمُّ إعداد الإنسان نفسياً وفكرياً وجسدياً ، بما يتناسب مع قضية الاستخلاف في الأرض ، ونشر عقيدة التوحيد ، والدعوة إلى الله عز وجل؛ على هدى ونور ، حيث تقوى غِراسُ الإيمان ، وتثمر ثمراتها اليانعة ، فيقوم المجتمع الصالح الرشيد المتوازن.

ويُربِّي القرآن الناسَ ليؤمنوا بالله العزيز الحميد ، ويهتم بسلوكهم اهتماماً كبيراً ، لإرساء دعائم الطاعة لله ولرسوله ، وذلك من خلال الخطوات الثلاثة التالية:

* دعوة المؤمنين إلى العمل بالكتاب المبين ، واقتفاء السُّنَّة النبوية ، واتخاذهما سلوكاً للناس في هذه الحياة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

وهذا الإيمان الراسخ يقود إلى التحرر من ربقة التقليد ، والشيطان ، والطاغوت ، ومناهج الضلال. قال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] بينما الإيمان الصحيح بالله تعالى رباً ، وبالنبي محمد ﷺ رسولاً؛ يهب العزَّة والثقة والطمأنينة ، قال تباركتْ أسماؤه وتعالى جدُّه: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣][1].

* إقامة علاقة وشيجة بين الإيمان وإحساس الإنسان بمراقبة الله تعالى له مراقبة دقيقة دائمة؛ وذلك لضبط السلوك ، وتصحيح مسار الحياة ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

---

(١) ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾: فلا يخشى نَقْصاً من ثوابه. ﴿وَلَا رَهَقًا﴾: غَشَيان ذلَّة له. =

ومتى استشعر الإنسانُ هذه المراقبة، فإنَّ الوازع الديني، والرادع الداخلي يقوى ويشتد، ويعتدل السلوك نتيجة الثبات على طاعة الله عز وجل ، وصولاً إلى مرتبة الاستقامة؛ التي هي بمثابة عهد وعقد متأصل في القول والعمل ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

ولا يستقيم الإنسان على طريق الإيمان إلا بعد أن يذوق حلاوته ، ويتحسَّس مذاقه الطيب ، ويفعل باندفاعٍ وتلقائية ما يُوجب الارتقاء في عالم الاستقامة والإحسان والكمال. قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وَجَد بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يُحبُّه إلاَّ لله تعالى ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه اللهُ منه ، كما يكره أن يُقْذَفَ في النار»[1].

وقال ﷺ: «ذاق طَعْمَ الإيمان مَنْ رضي بالله رباً ، وبالإسلام دِيْناً ، وبمحمد رسولاً»[2] وحلاوة الإيمان «عبارة عمَّا يجده المؤمن المحقِّقُ في إيمانه ، المطمئن قلبه به من انشراح صدره ، وتنويره بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، ومعرفة مِنَّة الله تعالى عليه في أن أنعم عليه بالإسلام ، ونَظَمه في سِلْك أمة محمد خير الأنام ، وحَبَّب إليه الإيمان والمؤمنين ، وبغَّض إليه الكفر والكافرين ، وأنجاه من قبيح أفعالهم ، وركاكة أحوالهم. وعند مطالعة هذه المنن ، والوقوف على تفاصيل تلك النِّعَم؛ تطير القلوبُ فرحاً وسروراً ، وتمتلىء إشراقاً ونوراً»[3].

* الربط بين العلم والإيمان ، وبيان التوافق والتكامل بينهما ، وذلك أن القرآن الكريم دعا إلى التفكير في الكون والحياة والأحياء ، وأشار إلى مكانة

---

(١) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).
(٢) رواه أحمد (١/ ٢٠٨) ومسلم (٣٤) والترمذي (٢٧٥٨).
(٣) المفهم؛ للقرطبي (١/ ٢١٠).

العقل ، وقدرته على إيجاد واقع جديد علمي؛ لعمارة الأرض ، وتجسيد الأمانة واقعاً حيّاً ، يشع بمناخ واسع من التأمل والكسب العلمي. والإيمان يهدي النفوس ، ويحقق الحياة الروحية المتألقة ، والعلم يوجِّه السلوك ، ويقوِّم مسيرة الحياة ، وقد ربط القرآنُ الكريمُ بينهما ، فقال اللهُ عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦].

وإن دعوة القرآن إلى الكسب العلمي قفزة سلوكية تربوية؛ لتغيير نمط التفكير ، وأسلوب الحياة ، فلا ارتقاء إلا بإثارة التفكير وإصلاح الضمير ، وقد نزل القرآنُ الكريم ليعزِّز نشوء الأمة الصالحة ، ويحثّها على التأمل والنظر والبناء ، وفَتْح آفاق العلم ، والاعتماد على ركائزه المتمثِّلة بالمشاهدة ، والتجارب العملية ، أو التقدم العلمي.

ويربط القرآنُ بين ركائز العلم والإيمان ، فالمشاهدة لآيات الله تعالى في الكون وسيلة لتحقيق المعرفة الإيمانية ، وتأمُّل نظام الحياة البديع ، وإحكام الصنعة الربانية. قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

ومن هنا يتبيَّن السبب في ذِكْر العلماء ، وأنهم أكثر خشية من غيرهم ، في معرِض الحديث عن دلائل قدرة الله ، وحكمته في إنزال المطر ، وخَلْق الأشياء على اختلافها. قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨][1].

---

(١) ﴿ جُدَدٌ ﴾: طرائق وخطوط مختلفة الألوان. ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾: متناهية في السواد كالأغْربة.

فالتربية في الإسلام تدعو الناسَ جميعاً إلى استخدام قدراتهم للكشف والبحث والنظر ، وإدراك آثـار صنع الله عز وجل ، فيكون فَهْمُ الكون نابعاً من إيمان راسخ ، ينمو ويزداد ، ويدفع الإنسان باستمرار للتنقيب عن الأسرار الكامنـة ، وعـدم الاقتصار على الكلام دون الفعـل ، وردّ الأمـور إلى أسبابها ومُسبِّبها ، دَفْعاً للعطالة ، فإن رأى الناسُ تقـصيراً لديهم ، وعجـزاً في مجتمعاتهم ، فإن الله عز وجل يقول: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أما القرآنُ الكريم فيدعو إلى الأخذ بالعلم ، وتمثُّل المعارف ، وإعداد المتعلِّم ، وتربيته؛ لإنشاء الفرد الصالح ، والمجتمع العامل ، استناداً إلى منطلقات الإيمان والتقدم العلمي.

والعلم والإيمان متكاملان في الإسلام ، والسبب في ذلك أن العلمَ ربَّاني المصدر ، كذلك الدين والإيمان ، فلا تضادَّ بينهما ولا تنافر ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣] ولذلك كان العلم طريقاً لحيازة المعرفة ، والبحث عن حقيقة الدين ، فمن امتلك ناصية العلم ، وأصول البحث ، وركائز التنقيب ، وصل إلى الحقائق ، ونال أعلى المراتب. قال الله عز وجل: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦] ولهذا كان العلم سبباً مباشراً لنيل تقوى الله تعالى ، والخشية منه ، فالعالم يدرك ما لا يدركه الجاهل ، ويطَّلع على الأسرار فيخشع فؤاده لخالق السماء والأرض ، وتنطق كل جارحة فيه تسبِّح بعظمة الله ، وجلال قدرته ، قال سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] أمَّا الذين نفروا من معرفة الحقائق ، وكذَّبوا بالدِّيْن ، ونبذوا الطريق المستقيم ، وتسرَّعوا بإصدار أحكامٍ فجَّة غير موضوعية ، فإنهم نابذوا العلمَ العداء ، وأطلقوا سخفَ أقوالهم قبل التثبت والاطلاع على جوانب الموضوع كلها ، قال الله عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

وتبيِّن التربيةُ القرآنية أن العلم يوافق الإيمان ، أمَّا أولئك المتقوِّلين بأن

العلم يصادم الدِّيْن ، وينازع الإيمان ، فإن نظرتهم غير صائبة ، وقد أقاموا نتائج أقوالهم على ظنون وهمية لا تستند إلى الحقائق ، علاوةً على أنهم لا يدركون أن العلم أساس الإيمان ، فإن أصرُّوا على موقفهم فإنَّ الخسران مآلهم ، وعليهم أن يعيدوا النظر من جديد ، ويقرؤوا صفحات التاريخ ، ويدرسوا متأمِّلين كتاب الكون ، ومصيرَ الأمم السالفة؛ التي شردت عن الحق ، وأعلنت عَداءها للعلم. قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٣][1].

(ب) أساس الفطرة وخصائصها المادية والروحية:

مما لا شكَّ فيه أنَّ الله تعالى خلق الإنسانَ في أطوار مختلفة ، من مرحلة التكوين من طين إلى مرحلة النشأة في الأرحام ، ومن ثم تشكُّل الإنسان كائناً متكامل القوام ، مُكرَّماً في أصل الخلْقة ، ثم يتدرَّج من طور الطفولة إلى الشباب فالشيخوخة. قال الله عز وجل: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤][2].

وأوضح القرآنُ الكريم بعضاً من هذه الأطوار ، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

وتحدَّث القرآن عن أصل الإنسان وعن النفخة الروحية فيه ، فقال

---

(١) ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾: فما دَفَع عنهم وما نَفعهم. ﴿ مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾: بأمور الدنيا مستهزئين بالدين. ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾: أحاط ، أو نَزَل بهم.

(٢) ﴿ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾: لاتخافون عظمة الله. ﴿ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾: مُدرِّجاً لكم في حالات مختلفة.

سُبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ ـ ٢٩][1].

وخُلِق الإنسانُ وله ضرورات لا يستغني عنها لمتابعة حياته ، كالطعام والشراب واللباس ، إضافة إلى الشهوات المتأصلة في نفسه ، والنزعات بمختلف ألوانها ، كالنزعة الجنسية ، والنزعة الذاتية .

وينشأ عن تلك الغرائز رغبات عديدة ، كالتمني ، والأمل ، والطموح . ويبرز إلى جانبها بعض المطامع كالميل إلى تجميع الثروة ، وحبّ الوجاهة ، والتسلط ، والشهرة .

وكل هذه الأمور ـ الميول والدوافع والغرائز ـ ما لم تنضبط وفق معايير الخُلُق القويم ، والتربية الإسلامية ، فإنها تنأى عن الصواب ، وتشرد عن المنهج السديد ، فتظهر السلبيات واضحة لكل ذي عينين .

وخصائص الإنسان المادية والروحية تُسمَّى الفطرة ، فلكل إنسانٍ استعداد نفسي لتقبُّل الأشياء أو رَفْضها ، واتخاذ الموقف المناسب إزاءها ، سواء أكان ذلك الموقف يتصف بالسلبية أم بالإيجابية .

كما أنَّ لكل إنسان دوافع داخلية أو خارجية ، تجعله يُغيِّر سلوكه وفق الرغبات والحاجات ، فيقوم بجملة أعمالٍ لمواجهة تلك المواقف . وبمقدار حيازة المرء لأسس الفطرة السليمة ؛ فإنه يتخذ مواقف أكثر إيجابية ، مدفوعاً بنزعة الإيمان والقيم الثابتة .

وعندما نتدبَّر رسالة الإنسان في الحياة ، وأنه مخلوق لعبادة الله عز وجل ، وإعمار الكون ، وضرورة العودة الدائبة إلى الفطرة السليمة ، ندرك معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٧] .

---

(١) ﴿ صَلْصَٰلٍ ﴾ : طين يابس كالفخار . ﴿ حَمَإٍ ﴾ : طين أسود مُتغيِّر . ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ : مصوَّر صورةَ إنسان أجوف .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن مواجهة النزعات والميول ينبغي أن تتساوق وتتناغم مع الرؤية الدينية الإيجابية؛ لئلا يحدث شَرْخٌ أو شَدْخ في الفهم أو التطبيق، وبالتالي تُصاب العبادة ـ بمعناها الواسع ـ بنوعٍ من التحريف والوأد.

ولنأخذ دافعاً فِطْرياً؛ كحبِّ تملُّك المال وغيره ، فإن القرآن الكريم أشار إلى هذا الميل ، فقال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]. قال ابنُ كثير: «أي: وإنه لحب الخير ـ وهو المال ـ لشديد. وفيه مذهبان:

أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال.

والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال.

وكلاهما صحيح»[1].

ولم ينفخ اللهُ عز وجل من روحه في الكيان الآدمي؛ ليجري لاهثاً خلف تحصيل المال وحسب ، وكَـنْـزه ، والحرص عليه ، فيتحول الإنسان من جامعٍ للمال باعتباره نعمةً يجب أن يشكر خالقه عليها ، بإخراج الزكاة ، ودَفْـع الصـدقـات ، وصِلـة الأرحـام ، وإعطـاء المحتـاج ، ومسـاعـدة المسكين والفقير... فيتحول المالُ إلى غِلٍّ يُقيِّد صاحبه ، وينحدر به إلى مرتبة منحطّة ، يجدر بالعاقل ألاَّ يرتكس في حمأتها ، أو ينتكس في بؤرها ، فاللهُ تعالى قد خَلَق الإنسان ليعمر الكون ، ويشكر النعم ، ويعبد الخالق ، فرشَّحه لمكانٍ عالٍ كريم. قال الشاعر:

قـد رشَّحـوكَ لأمـرٍ لـو فطنـتَ لـه فاربأْ بنفسكَ أن تَرْعى مع الهملِ

ولا يهدم هاتيك المكانة إلا مصرٌّ على الإسفاف ، وجاحد لِنِعَم الله عز وجل ، وهو يبتعد عن أساس التربية القرآنية والنبوية؛ حيث كان المالُ قوةً لإحقاق الحق ، وتأمين الحاجات ، وبناء الحضارة ، والسعي لتحقيق رسالة الوجود الإنساني.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (٤/ ٦٤٩).

ومن هنا أنكر الله تعالى على الإنسان موقفه من كنز المال ، فإن وُسّع عليه اعتبر تلك التوسعة إكراماً له ، وإن ضُيِّق عليه اعتبر ذلك الضيق إهانة وذلاً . فالأول مخطىء؛ لأن زيادة المال ابتلاء وامتحان ، كما قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦]. والثاني مخطىء أيضاً؛ لأن التضييق في المال على بعض الناس امتحان وابتلاء ، لِيُعْرَف الشاكر والصابر .

وقد بيَّن الله عز وجل هذين الموقفين بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦][1].

وهنا تتجلى التربية القرآنية فتوضِّح المعاصي والآثام التي يقترفها بعضُ الناس ، وتكون سبباً للاعتداء ، واستباحة حقوق الآخرين ، وإيقاع الظلم بهم ، ويتجلّى حبُّ المال ، والحرص على تملُّكه ، كآفةٍ تبتلع الخير ، وتنحدر بصاحبها إلى درك الأنانية ، والعكوف على تحقيق المآرب الهشَّة الدنيا ، يقول الله عز وجل: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠][2].

فإذا كانت النفس تنقاد لانفعالاتٍ ضحلة ، ولا تستند إلى قاعدة إيمانية متينة ، فإنها تُسرُّ بامتلاك بعض النِّعم ، فإذا بها تتكبر ، وتتجبر ، وتظن أن المال وسيلة للطغيان والعدوان ، وتفريغ المآزق النفسية ، والأمراض العصبية ، والكبت الداخلي ، حسداً ، وبطراً ، ورياءً .

---

(١) ﴿ ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾: امتحنه واختبره بالنعم أو النقم. ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴾: فضيَّقه عليه ، ولم يبسطه له.

(٢) ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ ﴾: لا يحث بعضكم بعضا. ﴿ ٱلتُّرَاثَ ﴾: ميراث النساء واليتامى. ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾: جَمعاً بين الحلال والحرام. ﴿ حُبًّا جَمًّا ﴾: كثيراً ، مع حرص وشَرَه.

أمَّا إن حُوصرتْ ببعض الابتلاءات ، واشتدَّ عليها خناق الشدَّة ، فإنها تحسُّ بالضعف والعجز ، فتجأر بالدعاء إلى خالق الأرض والسماء؛ أن: يا رب ، يا رب. وكأن تلك النفوس لا تدرك أن لها رباً إلا وقت الحاجة والعَوَز!! يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٦][1].

أمَّا إذا توجهت الميولُ الفطريـة ، والدوافع النفسية ، والغرائز الحسيَّة إلى الخير ، وانتهاج طريق الهدايـة ، فإن الفطرة تتحقق باستقامة الإنسان على منهـج الله عز وجل ، وثباتـه على القيم الرشيـدة ، والـمُثُـل العتيدة.

وقد ربَّى رسولُ الله ﷺ بكلماته النبوية ، وإشرافه المتألق ؛ أصحابَه الكرام ، فكانوا رعيلاً متقدِّماً في دوافعهم والميول والغرائز ، وحسبنا أن نقتطف من حديقة النبوة زهرات يانعة ، تفوح بشذاها العبق ، فتوحي لكل ذي بصيرة بضرورة القيام بعبودية الله ، والشعور برقابته الربانية ، وفضله العظيم الأعلى ، وهو سُبحانه وليُّ كل مُـتَّـقٍ. يقول ﷺ: «نِعِمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح»[2].

وعن سَهْل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافِلُ اليتيم في الجنةَ هكذا» وأشار بالسَّبَّابة والوسطى ، وفَرَّج بينهما[3].

---

(١) ﴿سُلْطَٰنًا﴾: كتاباً ، حُجَّة. ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾: بَطِروا وأَشِرُوا. ﴿يَقْنَطُونَ﴾: ييأسون من رحمة الله تعالى.

(٢) رواه أحمـد (٤/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) والبخـاري فـي الأدب المفـرد (٢٩٩) وابـن حبـان (١٠٨٩/ موارد).

(٣) رواه البخاري (٦٠٠٥) وأبو داود (٥١٥٠) والترمذي (١٩١٨).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مصيبةٍ تُصيب المسلمَ إلاَّ كفَّر اللهُ عنه بها، حتى الشوكة يُشاكُها»[1].

ولو أخذنا دافعاً فطرياً روحياً؛ كغريزة حب البقاء، لرأينا أشياء جديدة بالتأمل والبحث، فحياة الإنسان لا تنتهي بالوفاة الدنيوية، فهو سيلاقي بعثاً بعد الموت، ويحاسب على ما جنت يداه، إنْ خيراً فخيرٌ وجنة، وإن شرّاً فشرٌّ ونار. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٨][2].

وإذا أدرك الإنسان هذه الفكرة ـ وجود يوم آخر، وحياة سرمدية ـ فسرعان ما يجنح للأعمال الصالحة، والاستزادة منها، والاستفادة من العمر المعاش في الحياة، وتوظيفه لما بعد الموت، لأن الموت الدنيوي ليس نهاية للبشر، بل بداية للحياة الأخروية، وانتقالاً من الفناء إلى البقاء.

وتأتي التربية القرآنية تحذّر المعرضين عن الله تعالى؛ بأنهم سيُعانون من الانقطاع عن ربهم، والاطمئنان إلى حِماه العظيم الرحيم، فيحيون في ضيق نفسي، وحيرة قاتلة، وقلق مستمر، وشك لا ينتهي، ويحرصون على حياتهم الدنيا، ويطمحون للمطامع، فنهارهم ضلال، وليلهم انفصام، وجزاؤهم في الآخرة شقاء وضنك. يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢).

(٢) ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: غير مقطوع عنهم.

أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦][1].

ويمكن أن نشير إلى دافع فطري روحي آخر ، وهو دافع التديُّن ، فقد نشأ الإنسان بفطرته وهو يميل إلى الاعتصام بملاذ الله تعالى ، ويشعر بأنَّ له ربّاً خلقه فسوّاه وهداه ، وبعث إليه المرسلين مبشّرين ومنذرين ، فكل شيء في الكون ينطق بوجود الله تعالى.

وعَرَض القرآنُ الكريمُ قضية التوحيد من زاوية الفطرة ، إذ أخذ الله سُبحانه الميثاق على الناس في ذات أنفسهم ، وهم بَعْدُ في عالم الذر ، فاعترفوا بربوبية الله ، وألوهيته عز وجل ، واستشعروا في أعماق نفوسهم هذه الحقيقة ، فالتوحيد والتدين ميثاق بين الفطرة البشرية وخالق البشر ، منذ أن وجدت كينونتهم في تشكيلها الأول. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤].

ولا حُجَّة للبشر إن نقضوا هذا الميثاق ، ولو لم يبعث اللهُ تعالى إليهم الرسل ، لكنه ـ سُبحانه ـ برحمته وفَضْله العميم؛ أرسل الأنبياء والمرسلين إنذاراً وتبشيراً ، فلم يكل الناسَ إلى فطرتهم فقد تنحرف ،ولم يكلهم إلى عقولهم فقد تضل ، فكان إرسالُ الأنبياء دَحْضاً لكل زعم وظن وتقوُّل.

ومِنْ عوامل الانحراف التي تتعرض لها الفطرة البشرية: شياطين الإنس والجن؛ الذين يتصيَّدون نواحي الضعف ، ويركِّزون على نقاط هشَّة ، ويبرزونها ، ويعزفون على وترها الحسَّاس نغمات شاذة ، فيأتي التنبيهُ النبوي تربية منهجية؛ لإنقاذ الناس من عطالة الفكر ، وركام التقاليد ، وانحراف

---

(١) ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: ضيقة شديدة.

الفطرة. يقول ﷺ في الحديث القدسي: «إني خَلَقْتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهمُ الشياطينُ فاجتالتهمْ عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتْهُمْ أن يُشْرِكوا بي ما لم أُنْزِلْ به سلطاناً»(١).

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن الكفَّ عن الإنفاق، والحرص على تخزين المال، إنما ينشأ عن دافع سيِّء، وإيمان قلق، وخوف من الحاجة والإملاق، ويبقى الشيطان يوسوس للإنسان، فيُخوِّفه مرحلة الافتقار، ويُحرِّك فيه دافع التكالب على جمع الثروة وتخزينها. وإلى هذا يشيرُ قوله عز وجل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالشيطان يَعِدُ الشر، والله تعالى يَعِدُ الخير، والبون بين الوعدين شاسع، والهوة بينهما عميقة، وصاحب العقل الراجح هو الذي يتنبَّه للأسلوب الشيطاني، فلا يلج في دائرة الضلال، بل يُقوِّي إيمانه، ويُعزِّز اتصاله بالله سبحانه، فإن وسوس إليه الشيطان استعاذ بخالقه، واستجار بحوله وقوته؛ ليدفع عنه عقبات الطريق. قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للشيطان لَمَّةً، وللمَلَك لَمَّة، فأمَّا لَمَّةُ الشيطان فإيعادٌ بالشر، وتكذيب بالحق. وأمَّا لَمَّةُ المَلَك فإيعاد بالخير، وتصديقٌ بالحق. فَمَنْ وَجَد ذلك فليحمدِ اللهَ، ومَنْ وَجَدَ الأخرى فليتعوَّذْ من الشيطان». ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ...﴾ [البقرة: ٢٦٨](٢).

وتبقى التربية هي الوسيلة الأنجع لإيقاف نزيف الانحراف عن الفطرة السليمة؛ ولذلك أرسل الله عز وجل الرسل هداية للناس، وإعادةً لهم إلى سواء السبيل.

وإلى جانب هذا تقوم التربية على أساس توجيه الدوافع والميول والغرائز

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٥١) وابن حبان (٩٩٧).

نحو الخيريَّة ، والإيجابية؛ لإيجاد سلوك موجَّه ، بعيداً عن الزيف والدجل والتُّرهات ، فعلاجُ النفس البشرية يكون بكبح جماحها؛ لتحقيق زكاتها ، وتكاملها ، وتُقاها ، وبالتالي يفوزُ المتقي بالجنة ، وهي الهدف المرجوّ من عمل الصالحات. قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. إنَّ في ذلك لعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ج ـ أساس التزكية والتعليم:

أشرنا فيما مضى إلى أن من الأهداف العامة للتربية القرآنية: تزكية النفس ، والرقيّ بها في معارج الكمال ، فهي تربِّي في الإنسان كل ما يستطيعه من كمال؛ وصولاً إلى الأفضل؛ لأنَّ بذور الارتقاء موجودة لدى الإنسان ، والكمال معراج روحي وعقلي وأخلاقي ، فتتطلع التربيةُ في الإسلام إلى تحقيق جوهر الكائن الإنساني المتمثل في عقله وخُلُقه؛ من خلال عمليات التنمية ، والتوجيه.

وصحيح أن الإسلام دعا إلى العلم ، وأولاه عناية كبرى ، لكنَّه قدَّم التزكية عليه ، باعتبار أنَّ التزكيـة مرحلة تعـزِّز التعليم ، وتسهِّل طلبه ، وتدفع المتعلِّم لحيازة أكبر قدر ممكن من المعرفة والمعلومات. قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

ولابأس بإطلالة على معنى التزكية في اللغة ، ففي لسان العرب أشار ابنُ منظور إلى أن التزكية تعني: الإصلاح والتطهير والتنمية ، فقال: «الزَّكاء: النَّماء. وكلُّ شيء يزداد ويَنْمي فهو يزكو. والزكاة: ما أخرجته من مالك لتطهره به ، فالزكاة طُهْرة للأموال ، وزكاة الفِطْر طهرة للأبدان. وقوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: تُطهِّرهم بها. وقيل لما يُخْرَج من

المال للمساكين من حقوقهم: زكاةٌ؛ لأنه تطهيرٌ للمال، وتَثْميرٌ، وإصلاح، ونماء»[1].

ويُوضِّح الراغبُ الأصفهاني معنى التزكية فيقول بأن الزكاة تُطْلَقُ «لِما يُخْرِج الإنسانُ مِنْ حقٍّ الله تعالى إلى الفقراء، وتَسْميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكية النفس، أي: تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعاً؛ فإنَّ الخيرَيْن موجودان فيها. وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسانُ بحيث يستحقُّ في الدنيا الأوصافَ المحمودة، وفي الآخرة الأجْرَ والمثوبة. وهو أنْ يتحرَّى الإنسانُ ما فيه تطهيره»[2].

وتُنسب التزكية في القرآن الكريم:

(أ) إلى الإنسان؛ لكونه مكتسباً للتزكية والتطهير. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

(ب) وإلى الله عز وجل؛ لكونه فاعلاً للتزكية في حقيقة الأمر. قال سُبحانه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩].

(ج) وإلى النبي ﷺ؛ لكونه واسطة في وصول التزكية إلى الناس، قال تبارك وتعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال عز وجل: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١].

(د) وإلى العبادة، لكونها آلة التزكية، قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: ١٣] وقال سُبحانه: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. وهذه التزكية وُجِدت بتوفيق إلهيّ؛ لا بتعلُّم وممارسة.

والذي يعنينا هنا هو التزكية الكائنة بالتعلُّم والتربية وتعديل السلوك؛ بانتزاع كل شيءٍ غير مرغوبٍ فيه، وإحلال الأفضل والأكثر إيجابية، ويكون ذلك بطريقين:

---

(١) لسان العرب، مادة: زكا (١٤/٣٥٨).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٣٨١).

الطريق الأول: الحِمْية التربوية.

والطريق الثاني: تعديل السلوك وتربية النفس.

ونعني بالطريق الأول أن «تبدأ التطبيقات التربوية بالابتعاد بالفرد عن البيئات التي تتنكر للقيم الإسلامية، وعن مؤسَّساتها الثقافية، والتوجيهية، والوظيفية؛ ابتعاداً يستهدف توفير نوعٍ من الحِمْية الفكرية، والروحية، والسلوكية، ويُمكِّن التربيةَ الإسلامية من الانفراد بإعادة تشكيل سلوكه»[1].

والناظرُ في السنة النبوية يجد مصداقَ ما أشرنا إليه، ويمكن أن نُومِئَ إلى بعض المعالم؛ كي تتَّضح صورةُ الموقف، وتبدو جليَّةً للعيان.

* عن جابر بن عبد الله: أنَّ عمر بن الخطاب أتى النبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه النبيُّ ﷺ فغضب، فقال: «أمتهوِّكون فيها يا بنَ الخطَّاب؟! والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقيَّة، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقّ، فتكذبوا به، أو بباطل فتصدِّقوا به. والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى ﷺ كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتَّبعني»[2].

* عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: كان أهل الجاهلية لا يفيضون حتى يروا الشمسَ على ثَبير، فخالفهم النبيُّ، فَدَفَع قبل طلوع الشمس[3].

* وعن أبي موسى قال: كانتْ يهودُ تتَّخذ يومَ عاشوراء عيداً، فقال رسول الله ﷺ: «خالِفُوهم، صُوموا أنتم»[4].

---

(١) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية؛ للدكتور ماجد الكيلاني (٤١ ـ ٤٢).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧). «أمتهوكون»: التهوُّك كالتهوُّر، وهو الوقوعُ في الأمر بغير رويَّة.

(٣) رواه أحمد (١/ ١٤) والبخاري (١٦٨٤) والترمذي (٨٩٦) والنسائي (٥/ ٢٦٥) وابن ماجه (٣٠٢٢).

(٤) رواه البخاري (٢٠٠٥) ومسلم (١١٣١).

* وعن شداد بن أَوْس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خالِفوا اليهود والنصارى؛ فإنهم لا يُصَلُّون في خِفافهم، ولا في نِعالهم»[1].

* وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «غَيِّروا الشَّيْبَ، ولا تشبَّهوا باليهود والنصارى»[2].

* وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اليهودَ والنصارى لا يَصْبِغُون فخالِفُوهم»[3].

وهذه الأحاديث النبوية غيضٌ من فيضِ التربية الإسلامية؛ التي تحثُّ أفرادها على التفرُّد، وتدعوهم إلى مخالفة غيرهم في كلِّ مظاهر حياتهم؛ ليبدو المسلم دُرَّةً مُتألِّقة تشعُّ بنورٍ أخَّاذ، ولا تتأثر بأيِّ إشعاع مهما كان مصدره.

والطريق الثاني للتزكية هو الشروع بنبذ السُّلوك اللاإيجابي، وتعزيز السلوك الجيِّد الرشيد، وفق التربية الإسلامية المستمدَّة من نصوص القرآن والسُّنَّة، فكلُّ تطبيق لمنهج الله عز وجل، وكل اتباع لأحكام رسول الله؛ هو تعديل للسلوك، وتقويم لمسار الحياة، وأنماط التفكير، وألوان التصوُّرات. قال الله سُبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ويمرُّ تعديلُ السلوك الإنساني بثلاث مراحل هي:

(أ) **مرحلة الإسلام**، وهي الامتثال والانقياد لما جاء به رسولُ الله ﷺ مِمَّا عُلِم من الدِّين بالضرورة، أو قام عليه الدليلُ اليقيني.

وقد جاء تفسيرُ الإسلام في حديث جبريل: وقال: يا محمد، أخبرني عن

---

(١) رواه أبو داود (٦٥٢) وابن حبان (٢١٨٦) والحاكم (١/ ٢٦٠) والبيهقي (٢/ ٤٣٢).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٦١ و٤٩٩) وابن حبان (٥٤٧٣).

(٣) رواه البخاري (٣٤٦٢) ومسلم (٢١٠٣).

الإسلام. فقال رسولُ الله ﷺ: «الإسلام أن تشهدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلاً»[1].

والإسلام انقيادٌ بالأفعال الظاهرة الشرعية، بدليل حديث أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»[2].

(ب) **مرحلة الإيمان**، وهو التصديق بالقواعد الشرعية، ويكون باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيقٌ بالقلب، وإقرار باللسان، وعملٍ بالجوارح، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩].

وقد جَعَل رسولُ الله ﷺ أصلَ الإيمان ستة أشياء في حديث جبريل حيث سأله فقال: أخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشرِّه»[3].

وفي مرحلة الإيمان هذه يُدعم السلوكُ الظاهر بالإيمان الباطن، ويُطابق المخبرُ المظهرَ، وقد ميَّز القرآنُ الكريم بين الإسلام والإيمان في قول الله عز وجل: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

قال الإمامُ الواحدي: «نزلت في أعرابٍ من بني أسد بن خُزَيمة، قدموا على رسول الله ﷺ المدينةَ في سنةٍ مجدبة، فأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعَذَرات، وأَغْلَوْا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥١) ومسلم (٨) وأبو داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٣) والنسائي (٨/ ٩٧) وابن ماجه (٦٣).

(٢) رواه ابنُ أبي شيبة في مصنفه (١١/ ١١).

(٣) انظر تخريجه قبل الحديث السابق.

قاتلك بنو فلان ، فأَعْطنا من الصدقة . وجعلوا يمنُّون عليه ، فأنزل اللهُ تعالى فيهم هذه الآية»[1] .

فالإيمان تصديقٌ لا يداخله شك بالله عز وجل وبرسول الله ﷺ ، ويتَّصف هذا التصديق بالثبات والاستقرار ، فلا يتزعزع ، ولا يتلجلج ، بل ينمو ويزداد ، وينبثق عنه الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، وبالتالي تتوازن شخصية المسلم بين قوله وفِعْله ، وبين حقيقة إيمانه والواقع الذي يتداح بين جنباته ، فلا مفارقة بين الصورة الإيمانية وما ينساب في الحياة من مجريات ووقائع ، فالكل يصبُّ في خليج التكامل والاستقامة والثبات على الطريق؛ لأن الصدق في العقيدة ليس ادِّعاءً ، بل واقعاً مُحقَّقاً ، لا يقبل الريب ، ولا يخضع للاضطراب . ومهما اشتدَّ الأمر ، وادلهمَّ الخطب ، وتزلزلت الأحداث ، فإن المؤمنَ يبقى واثقاً بدينه ، ثابتاً على مبدئه ، ويظل موصولاً بخالق السماء والأرض ، ناهِلاً من السُّنَّة النبوية ، بينما يتابع رحلةَ الحياة بخطى مستقيمة على درب الهداية .

وهذه التربية الإسلامية تُنبِّه القلوب المؤمنة إلى خطورة المزالق ، وأخطار المسير ، ولذا قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

فحذَّرتِ الآيةُ من الارتياب نتيجة ما يلاقيه المؤمن من الصعوبات ، والألاقي ، والشدائد ، والابتلاءات ، فلا بُدَّ من عَقْد العزم ، والتهيؤ للدخول في عالم الإيمان بقوة وثبات وصبر ، مع الإصرار على الاستقامة ، وتحقيق السلوك القويم .

(ج) مرحلة **الإحسان** ، وقد فسَّره رسولُ الله ﷺ بقوله : «أن تعبدَ اللهَ كأنك

---

(١) أسباب النزول ، للواحدي (٤٥٧) .

تراه ، فإنْ لم تكنْ تراه فإنه يراك»[1]. قال ابنُ الأثير: «أراد بالإحسان: الإخلاصَ ، وهو شَرْطٌ في صحة الإيمان والإسلام معاً ، وذلك أنَّ مَنْ تلفَّظ بالكلمة ، وجاء بالعلم من غير نية الإخلاص لم يكن مُحْسِناً ، ولا كان إيمانهُ صحيحاً. وقيل: أراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقبة ، وحُسْن الطاعة ، فإنَّ مَنْ راقب الله أَحْسَنَ عملَه»[2].

وفي مرحلة الإحسان ترتقي مهارات التفكير الإنساني ، وينطوي التطبيق العملي على أفعالٍ غاية في الرفعة ، والتغلب على المشاعر الآنية والانفعالات المتوترة.

وقد امتدح اللهُ عز وجل المحسنين بقوله: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ويتجلَّى جهادُ النفس في القدرة على كَظْم الغيظ ، وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ أن القويَّ هو القادر على كبح جماح غضبه ، والعفو عند المقدرة ، فقال ﷺ: «ليس الشديدُ بالصُّرَعة ، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب»[3].

وهذا الرقي في التفكير لا يتمُّ بين عشية وضُحاها ، بل يحتاج إلى تدريب ومِران ، وكلما اقتدر الإنسان على التحكم بانفعالاته ، كلما ارتقى في سُلَّم الرفعة ، وامتلك ناصية الأخلاق الكريمة ، وبالتالي بلغ مرتبة الإحسان ، وفي ذلك غاية الرقي الروحي ، وكمال السلوك ، وبالتالي يتكوَّن المجتمع من أفراد صالحين ، يراعون الحقوق ، ويؤدُّون واجباتهم بطواعية وتلقائية ، مبتغين الأجر ممَّن لا تخفى عليه خافية.

وثمَّة سؤال يُطرح مفاده: كيف تتمُّ عملية التزكية في النفس الإنسانية؟

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥١) ومسلم (٨) وأبو داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٣) والنسائي (٨/ ٩٧) وابن ماجه (٦٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٨٧).

(٣) رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩).

وللجواب نقول:

تمرُّ مراحلُ التهذيب والتشذيب والتقويم للنفس الإنسانية أمام صعوبات أربعة، هي: النفس والشيطان والدنيا والهوى. ولا يبلغ المرءُ درجة حبِّ الخير، والشعور بحلاوة العمل الصالح؛ إلا بعد مِرانٍ طويل، يتسامى فيه على الدوام؛ حتى يصل إلى محبة الفضيلة، ويلتقي جهادُ الإنسان مع توفيق الله عز وجل، فتبلغ النفس مكانتها المرموقة، وتحظى بنتائج سعيها المنشود.

وترتبط محبةُ الخير بنعمة الإيمان، وذلك أن الله عز وجل يهدي الموفَّقين إليه، ويجعل قلوبهم تهفو لمحبته، فيكره المرءُ المعاصي والكفر والفسوق، وهذا من آثار رحمة الله، ونتائج فيض توفيقه. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

وإذا كان الله عز وجل يتفضَّل على طائفةٍ من عباده، فيهديهم إلى أقوم السبل، ويخلِّص أفئدتهم من مصادر الشر ومنابع المعصية، فمن باب أولى أن يستسلموا لشرعه تعالى، وتدبيره، وتوجيهه، وتربيته.

ورحمَ اللهُ الإمامَ ابن عطاء الله السكندري إذ يقول: «أصلُ كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعةٍ ويقظة وعفَّة: عَدَمُ الرضا منك عنها. لأنْ تصحبَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأيُّ علمٍ لعالِمٍ يرضى عن نفسه؟! وأيُّ جهلٍ لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!»[1].

وتستقيم النفس بتصحيح السريرة، واستقامة الإرادة، وصدق النية،

---

(١) المنهج الأتم في تبويب الحكم، تبويب: المتقي الهندي، اعتنى به: حسن السماحي (٦٢).

ونقاء الضمير ، والندم على ما مضى من الآثام ، وتواثب القلب ، واقتران الجوارح لهاتيك المعاصي.

وتأتي التربية القرآنية تدعو النفس إلى تَرْك الآثام؛ ظاهرها وباطنها؛ لأنَّ الاستمرار في تلف النفس ، وسباقها في اجتراح السيئات؛ يقودها إلى هوَّة الغفلة ، وفقد الشعور بوضاعة الذنب ، والإحساس بفقد الأمل من المغفرة ، فيزداد الإقبالُ على النقائص والعيوب. وهيهات لمن استمرأ هذا الطريق أن ينجوَ ، أو يصل إلى الكمال!

قال الله عز وجل: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠][1].

ويرتبط العلمُ بالتزكية والمجاهدة ، فأيُّ نفع لمن تحوَّل عقلُه إلىٰ مخزن للمعرفة ، ومستودع للمعلومات ، ولكنه يحمل طبعاً غليظاً ، ونفساً وثَّابة لارتكاب الآثام ، فلا بُدَّ من التهذيب مع العلم ، والتخلُّص من آفات الخشونة والغِلظة وعِلل النفس ، والتنقيب عما يعيب؛ كي يرتقي الإنسانُ في معارج التزكية والترقية ، فما أشقَّ الغفلة ، والرضا عن النفس ، والترئُّث في إصلاحها!

ومن الأمور ذات الأهمية: محاسبة النفس على الدوام ، ومعرفة قربها من العبودية ، أو شرودها في عالم الخطيئة ، وركام المعاصي.

ولا بُدَّ أن يتَّجه الإنسانُ مُخْلِصاً في أعماله ، يبتغي بها وَجْهَ ربِّه ، ولا يكترث بما يلاقيه من صدودٍ ، وغمط ، وإنكار ، فليست الكثرةُ دليلاً على الصحة واليقين. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦][2].

وعندما تكون الصلةُ بالله سُبحانه قوية ، لا تتزعزع ، وعندما لا يتضايق

---

(١) ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾: يكتسبون من الإثم.

(٢) ﴿يَخْرُصُونَ﴾: يكذبون فيما ينسبونه إلى الله.

الإنسان المؤمن ولو مادت الأرض ، أو أنكره الناس ، وعندما يردِّد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦] عندئذٍ تقرُّ العين ، وينشرح الصدر ، وتُسرُّ النفس بفضل الله عز وجل.

ومِنْ قواطع التزكيـة: الشيطـان ، في خداعـه وتلبيسه وتسويفه. وإنَّ نظرة متأملة في آيـات القرآن الكريم تجعل الإنسانَ ينفر من خطوات الشيطان ، ويفرُّ من إضلاله ووسوسته إلى الله العزيز الأجلّ ، إذْ لا يأمر الشيطانُ إلا بالشر والفساد. قال الله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال سُبحانه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥].

وما أكثر الآيات القرآنية التي تُبيِّـن خداع الشيطان ، وتزيينه؛ ليقع الإنسانُ في أحابيل الشر ، ويهوي في مستنقع المعصية. وتأتي التربية ـ وصولاً إلى التزكية ـ ببيان علاقة الشيطان بالإنسان ، فهو قرين سوء ، ويُوقِع العداوة والبغضاء ، وقد أخرج آدم وحواء من الجنة بفتنته وإغوائه ، فهو عدوٌّ لدود لبني الإنسان ، كافر بربِّه ، لا يَعِدُ إلا غروراً ، وهو يأمر بالفحشاء والمنكر ، ويصدُّ عن سبيل الخير والحق ، ويُنْسِي ذِكْر الله تعالى. فإذا أدرك المتعلم ملامح هذه الصورة الشيطانية ، تحرَّك شعورُه لتنمية أفعال الخير والصلاح ، وتعلَّق بما يُحبُّه اللهُ عز وجل ، ومارس الإيمان ، وحرص على أداء السلوك الحسن ، وبالتالي تزكو نفسه؛ إذ تنأى عن الانحراف ، ويصبح مُهيَّئاً للهداية والتوفيق. قال سُبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أمَّا ثالثةُ الأثافي من قواطع التزكية فهي: محبة الدنيا ، ولا بُدَّ ـ كي تزكو النفس ـ من تربية المتعلِّم ، وإعطائه صورة حقيقية عن معالم الحياة الدنيا ، فهي موقوتة بأجلٍ محدَّد ، ولا بد من نهايةٍ لها ، حيث يموت الصالحون والطالحون ، ويذهبون بأعمالهم ـ مهما تنوَّعت ـ إلى ربهم ، حيث الحساب والميزان ، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

والدنيا متاع الغرور ، تخدع الكثيرَ من الناس ، فيحرصون عليها ، ويتشاجرون على متاعها ، ويبتعدون عن الحق والحقائق ، ويتناسون أنها مزرعة للآخرة ، وطريق إلى الجنة أو النار ، فإذا تربى المتعلِّم على هذه الفكرة ، فإنه سينهض لإعمار الكون ، والقيام بالتكاليف الملقاة على عاتقه ، فتخرج مكنونات الخير ، وأصداف الجمال ، ويتعزَّز السلوك الإيجابي؛ وتقوى الرغبة لتطبيق التعاليم الإسلامية ، والنفرة من الضلال والضالين.

وعبادة الله تعالى لا يرقى إليها أحلاس الدنيا ، وعشَّاق المادية ، ومَنْ التصق بالدنيا ، وأخلد إليها ، فإن الدنايا تؤزُّه إلى النار ، حيث يعترف بأسباب استحقاقه للارتهان والقيد في يوم الحساب ، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٨].

أمَّا الذين آمنوا ، وزكّوا نفوسهم ، وتكلَّفوا مشاق الرحلة إلى الله ، بالتهذيب ، وتعديل السلوك ، ومحاولة بلوغ الكمال الإنساني ، وتخلَّصوا من أدران الشرك والمعاصي ، وتبعات الآثام ، فإنهم يُقال لهم في الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

ولا بُدَّ من تحقيق التوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، إذ الدنيا دار الابتلاء والامتحان ، والآخرة دار الجزاء والحساب ، والمؤمن لا تخدعه مغريات الحياة ، ولا رغباتها ، كما أنه لا يزهد فيها زهد التاركين للعمل ،

فيكون عالةً على غيره ، ويحيا على سرابٍ خادع ، وآمال كاذبة ، بل يظلُّ المؤمن يجاهد في دنيا ، ويكافح في دائرة الوسطية. قال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

ويبقى دعاءُ المؤمن على الدوام: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ولا بُدَّ من الإشارة إلى قاطع التزكية الرابع ، وهو: الهوى والشهوة ، فبمقدار ارتقاء النفس إلى الفضائل والكمالات ، تنكمش الأهواء ، وتندثر الشهوات.

وقد حذَّر القرآنُ الكريم من اتباع الهوى ، باعتباره دافعاً إلى الطغيان ، ومجاوزة الحد ، واقتراف المعاصي ، ومعانقة الشرور ، فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النساء: ١٣٥] وقال عز وجل: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦] وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠].

والمطلوبُ من المتعلِّم ألاَّ يرتكس في مهاوي الهوى ، بل عليه أن يمسكَ بزمامِ الأمر ، وينهى نفسه عن دفعات الهوى العنيفة ، وهذا يحتاجُ إلى جهادٍ مستمر ، ومغالبة شاقة طويلة الأمد ، ولكن النتيجة :سرُّ الخاطر ، وتُثلج الصدر. فما دام خوفُ الله تعالى يعلو في نفس الإنسان ، وهو يتوجَّه في معارج التهذيب والتقويم والرفعة ، فسيحظى بنيل مراده ، بعد أن يقاطع المعاصي ، ويتغلَّب على الضعف البشري ، فيندم ، ويستغفر ، ويتوب. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

وإنَّ الانتصار على هوى النفس ، وأَسْر الشهوة؛ لهو النصر المبين ، والتصرُّف الحكيم ، أما الهزيمة فتعني أن يقع الإنسان تحت سيطرة

عبودية الشهوة ، وإن ارتدى ثوبَ الإنسانية المزيَّف؛ لأنَّ الانطلاق حرية ، والانتكاس عبودية.

ومن استرضى غرائزه الدُّنيا ، وأشبع هواه ، طاشتْ به نوازعُ الشر ، وطُمِست حواسُّه ، وسار في شرود الضلال ، وتلك آفة تستأصل الإيمان ، وتتبرَّم بالدِّين. قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

وتكون التربية عنايةً بالإرادة الإنسانية ، فهي الدافع الأول للعمل الصالح؛ لما تحتوي عليه من الرغبة والاختيار للتوجُّه إلى قصدٍ ما ، فيتولَّد الميل إلى الشيء الحسن ، والنفور من الأمر السيِّء.

وحين تنمو الإرادات في النفس الإنسانية ، فإنها تتكامل ، وتقف في وجه القواطع كالهوى وغيره ، ويصبح توجيهُ الإرادة نحو الخير ذا أثر إيجابي فعَّال في تهذيب النفس ، ورقيِّها في مراتب الفضائل.

ويُعدِّد القرآنُ الكريم جملة إرادات كثيرة ، منها:

ـ إرادة الإحسان ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢].

ـ وإرادة الإصلاح: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود: ٨٨].

ـ وإرادة النُّصح: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤].

كما نفَّر القرآنُ الكريم من بعض الإرادات إيجابية السلبية ، ومنها:

ـ إرادة محبة الدنيا: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ـ وإرادة طمس الحق: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [الصف: ٨].

ـ وإرادة الجبن: ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣].

وهذه الإرادات السلبية تجعل الإنسان يهبط إلى مستوى سقيم ، مُنْتِن ، لا قيمة له ، وينبغي على المتعلم أن يتجنَّبه بإرادة حازمة جازمة.

ولكي تتأكد تزكيةُ النفس لا بُدَّ أن يحيا المتعلم وسط جوّ مناسب ، وإليك ـ عزيزنا القارىء ـ بعضاً من الأمور المساعدة على التزكية:

* قراءة القرآن الكريم ، للتمعُّن ، والتدبُّر ، والعمل بالأحكام.

* امتثال سيرة رسول الله ﷺ ، ومطالعتها؛ لأخذ العبرة ، والتقاط الدروس.

* دراسة الشمائل المحمدية؛ التي تمثل الشخصية النموذجية للإنسان المسلم؛ تطبيقاً لقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* مداومة ذِكْر الله تعالى؛ لشغل القلب بإشعاعه ، وإنارة الفكر بأحواله ، وعقد الصِّلة مع الخالق.

* الحرص على الصحبة المنتقاة الحسنة؛ لما لها من أثرٍ في تعديل السلوك ، وتزكية النفس.

* المحافظة على نوافل العبادات ، لنيل محبة الله عز وجل وتوفيقه.

ولا تبلغ التزكيةُ منتهاها ، ما لم تُثْمِر محبة الله وإجلاله [1]، قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]. فالحب بين العبد والرب ، والرضا المتبادل يكوّن أواصر الصلة القوية بين الروح الوثابة ، والنفس الزاكية ، وبين الرب الرحيم الودود.

وإن أهمَّ رباط بين العباد وخالقهم هو الحب الساري ، والحديث الصادق ، والتصور الصحيح.

---

(١) يُنظر كتاب: «محبة الله عز وجل» أعدّه: يوسف علي بديوي. نشر دار اليمامة بدمشق ، سنة ٢٠٠٠م ، الطبعة الأولى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي غضون مراحل التزكية، يضطلع المرءُ بجهادٍ شاق، ويُلاقي متاعب جمَّة، ويحسُّ بعبء ثقيل، لكنه يندفع نحو الأفضل والأكمل، في رحلة حب بينه وبين ربِّه، فيناديه خالقُه: أن أَقْبِلْ، فيسعى بخطى حثيثة، ويستجيب للنداء العلوي بانطلاقةٍ متفرِّدة، وطواعية سمحة، وهو يتحسَّس الإنعامَ والتفضُّل الغامر الجزيل.

وفي طريق التزكية يتعلَّم المرءُ التفكير العلمي الموضوعي، وقد بنى القرآنُ الكريم الموضوعية في التفكير بناءً محكماً، فمن ذلك:

* الدعوة إلى الدراسات النفسية، وضرورة معرفتها؛ لإدراك مكوِّنات الدوافع، والأمزجة، والميول، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وهذه الآيات الكونية والنفسية لها آثارها في تحديد موضوعية التفكير، وعدم الرجم بالغيب والهوى والظنون.

* ويأتي الحوار انفتاحاً للتفكير الموضوعي، وتواصلاً مع الآخرين؛ إثارةً للفكر، وتجليةً لصيغ المشاركة، والنقاش، دون الاعتماد على أحكام مسبقة، قد تضمُّ في أبعادها شيئاً من الخطأ أو التحيُّز. وقد علَّمنا القرآنُ الكريمُ أسلوبَ الحوار، فقال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

* ومن وسائل التفكير الموضوعي: عدم الإصغاء إلى الأفكار والآراء والعادات الشائعة، وترديد المقولات السَّيَّارة. وجاء الإسلام يجتثُّ تلك الموازين الخاطئة، فقال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

* ونعى القرآنُ الكريم على الذين يتبعون الظن ، ويجرون خلف أهوائهم بلا حُجَّة ، ولا علم ، ولا يقين ، فهم يستمدُّون عقائدهم من سبخة ظنونهم ، ويمتحون من جموح أهوائهم. قال اللهُ تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]. وقال رسولُ الله ﷺ: «إياكم والظنَّ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث»[1].

* كما حذَّر القرآنُ الكريم ممَّن يماري في الحق ، ويتبع الهوى دون الاعتماد على حقيقةٍ ما ، فلا حُجَّة له ، ولا دليلَ عنده ، بل يتَّبع ميوله المغرِضة ، ويصدُّ عن البحث لجمع الأدلة والبراهين. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

* والعقيدة الإسلامية واضحة ، والتربية القرآنية ناصعة ، فلا شيء يقوم على الوهم أو الشبهة ، بل المنهج العلمي ، والتفكير المنطقي الموضوعي هو طريق المعلِّمين والمتعلِّمين ، فلا مكان للأحكام السطحية ، أو الأقوال المبتسرة ، أو الفروض الوهمية. والإنسان مسؤول أمام واهب السمع والبصر والفؤاد ، ولا يجوز تبديد شيء منها ، فهي طاقات تخدم طريق العلم ، ويقين الحقائق ، وكل ذلك يُقرِّر المنهج المتكامل ، الثابت في استقرائه ، والصادق في أحكامه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦][2].

* وتُصحِّح التربية القرآنية منهج التفكير ، فتستنكر قولاً لا دليلَ له ، أو اعتقاداً لا برهان عليه ، ومنذ القِدَم ندَّد أصحابُ الكهف على قومهم؛ الذين يقولون ما ليس لهم به علم ، ولا يأتون بالحجج الدامغة على صحة ما يذهبون إليه ، فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٤) ومسلم (٢٥٦٣ و٢٥٦٤).

(٢) ﴿وَلَا تَقْفُ﴾: لا تتبع.

عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]. فإمَّا دليل قوي له سلطان على النفس والعقل، وإلا فهو لونٌ مقيت من ألوان الكذب والبهتان.

(د) أساس تحمُّل المسؤولية وانتظار الجزاء:

لا يمكن أن نتصوَّر قاعدة أخلاقية من غير إلزام، وهذا يقتضي وجود الاستعداد الفطري لدى الإنسان، وقدرته على الوفاء بما يُطلب منه، وبالتالي تبرز مسؤوليته سواء أَحْتَرَمَ القاعدة الأخلاقية، أم قصَّر في تطبيقها، وهو حرٌّ مختار، ومن ثم يتحمَّل الجزاء والحساب بعد خضوعه للتكليف.

وتتعدَّد المسؤوليات، وتتنوَّع؛ بحيث نجد المسؤولية الدينية، والأخلاقية، والاجتماعية، وغير ذلك.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن كل مخلوق عاقل مسؤول عما اسْتُرعي، وسيقف يوماً ما أمام ربه عز وجل؛ ليحاسبه عما جَنَتْ يداه، حيث يقف كل إنسان إزاء عمله، ويطَّلع عليه بنفسه، وفي اللحظة الحاسمة تقوى محكمةُ الضمير، ويكون الاعتراف بعد المواجهة. يقول الله عز وجل: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤][1]. ويقول سُبحانه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وتحضرُ جميع الأعمال، صغيرها وكبيرها، ويُنْشَر سجلُّ الأعمال الشامل الدقيق، بينما المجرمون يخافون سوء العاقبة من ذلك السجل الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها. يقول الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۖ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا

---

(١) ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾: عمله المقدَّر عليه لا ينفكُّ عنه. ﴿حَسِيبًا﴾: حاسِباً وعادّاً، أو محاسِباً.

ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧ ـ ٤٩].

وأشار القرآنُ الكريم إلى أن الله عز وجل سيحاسب عباده على أعمالهم الظاهرة والخفية، فعن ابن عباس قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قال: دَخَل قلوبَهم منها شيء لم يدخلْ قلوبَهم من شيء. قال النبيُّ ﷺ: «قولوا سمعنا وأَطَعْنا وسلَّمْنا» قال: فألقى اللهُ الإيمانَ في قلوبهم[1].

وستكون المساءلةُ يوم القيامة شاملة لجميع الملكات والقدرات والنِّعم الموهوبة في الحياة الدنيا، وطريقة استخدام الإنسان لها، وتوظيفها. قال رسول الله ﷺ: «لا تزولُ قدما عَبْدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن عِلْمه فيم فَعَل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[2].

وتستند هذه المساءلة على مبدأ المسؤولية، حيث يتمُّ غَرْسُها في نفوس الناشئة والمتعلِّمين، حيث يتربَّى في دواخلهم حسُّ المسؤولية، وأنهم يتحمَّلون نتائج أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم أمام أنفسهم ومجتمعهم وأمام ربِّهم يوم العرض الأكبر، فكل إنسانٍ حافظ مؤتمن، وتقع عليه مسؤولية صلاح ما التزم به في دينه ودنياه ومتعلقات ذلك، قال رسول الله ﷺ: «ألاَ كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته. فالأمير الذي على الناس راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته. والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم. والمرأة راعية على بيت بَعْلها ووَلَدِه، وهي مسؤولةٌ عنهم. والعبدُ راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه. ألاَ فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[3].

---

(١) رواه مسلم (١٢٦) والترمذي (٢٩٩٥).
(٢) رواه الترمذي (٢٤١٧).
(٣) رواه البخاري (٨٩٣) ومسلم (١٨٢٩).

ويربط القرآنُ الكريم بين المسؤولية والأمانة ، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

قال ابنُ عباس: الأمانة: الأعمال التي ائتمن اللهُ عليها العباد ، يعني: الفريضة[١].

والفرائض كثيرة ، وكلها أمانات ينبغي الحفاظ عليها ، فالإسلامُ منهج متكامل ، وحياة شاملة ، تتطلب إقامة الحق ، وتعمير الأرض ، والنهوض بالتكاليف ، وبناء النفوس على التوحيد ، وكلها تقتضي صبراً طويلاً ، وتستلزم تضحيات جِسام ، واستعلاء على الفتن ، فالأجر عند الله جزيل ، يدَّخره عز وجل للأمناء من عبادة.

وتستند المسؤولية الأخلاقية والدينية إلى عدة شروط ، أهمها[٢]:

* أن المسؤولية ذات طابع شخصي. وها هي نصوصُ القرآن تقرُّ هذا المبدأ ، فيقول الله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ [النساء: ١١١]. وقال سُبحانه: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥].

* والمسؤولية ذات أساسٍ قانوني ، فلن يُحاسَب أحدٌ على أفعاله دون أن يكون قد علم مسبقاً أحكامها. وقواعدُ القانون الأخلاقي مُسجَّلة في النفس ، وعلى المكلَّف أن يستخدم قدراته وملكاته الفطرية ليكتشفها. ومع ذلك فقد أرسل تعالى الرسلَ الكرام ليقيم الحجة على الناس ، قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨ ـ ٢٠٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٦).

(٢) دستور الأخلاق في الإسلام؛ للدكتور محمد عبد الله دراز (١٤٨).

* ويُشترط في المسؤولية أن يكون المسؤول عاقلاً ، بالغاً ، حراً. قال رسول الله ﷺ: «رُفِع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الغلام حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق»[1].

ولا يُفهم من الحديث أنَّ الأطفال ـ من حيث عدم مسؤوليتهم ـ جزء مهمل ، بل على العكس تماماً ، فلهم نظامهم الخاص تحت إشراف آبائهم ، ومربِّيهم ، ومُعلِّميهم ، وأساتذتهم. وهذا يلقي تبعة المسؤولية على الأسرة والمجتمع ، ويتطلب بذل أقصى المستطاع لتنشئة براعم الجيل تنشئة تتوافق مع القاعدة الأخلاقية العامة ، فيُراعى الطفل من خلال التربية مراعاة خاصة ، بحيث يكتسب سلوك الكبار في علاقته الشخصية ، والاجتماعية ، والدينية.

ولنأخذ مثالاً يوضح المسألة ، فنقول: لقد بيَّن القرآنُ الكريم عدم جواز دخول أحدٍ إلى بيوت الآخرين دون أن يستأذن ، ويُسلم عليهم في أدب. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَآ﴾ [النور: ٢٧].

أما فيما يتعلق بالخدم والأطفال ، فإنَّ القرآنَ الكريم يمنحهم نوعاً من التساهل في بعض القيود ، لا على سبيل الإعفاء منها ، فهو يُقيِّد وجوبَ هذه الأوامر بأوقات الراحة؛ حين نكون غالباً مستترين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [النور: ٥٨].

وبمقدار طاقة الإنسان ، وتحمُّله ، وقدرته؛ تكون مسؤوليته؛ ويُربِّي القرآنُ الكريمُ الناسَ على تصوُّر رحيم ، فالتكاليف تدخل ضمن طاقة

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٤٤) وأبو داود (٤٣٩٨) والنسائي (٦/ ١٥٦) وابن ماجه (٢٠٤١).

الإنسان ، وتمكُّنه ، وقدرته على العمل ، فيقول اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الإمام أبو العباس القرطبي: «هذا خبرٌ من الله تعالى أنه لا يأمرُنا إلا بما نطيقه ، ويمكننا إيقاعُه عادة. . . والله تعالى بلطفه بنا ، وإنعامه علينا ـ وإن كان قد كلَّفنا بما يشقُّ علينا ويثقل؛ كثبوت الواحد للعشرة ، وهجرة الإنسان ، وخروجه عن وطنه ، ومفارقة أهله وولده وعادته ـ لكنه لم يُكلِّفنا بالمشقَّات المثقلة ، ولا بالأمور المؤلمة ، كما كُلِّف مَنْ قَبْلَنا؛ إذ كلَّفهم بقتل أنفسهم ، وقرض موضع البول من أبدانهم ، بل سهَّل ، ورفق بنا ، ووضع عنا الإِصْر والأغلال التي وضعها على مَنْ كان قبلنا ، فله الحمد والمِنَّة ، والفضل والنعمة»[1].

والإنسانُ مسؤولٌ عما يقترف من سيئات ومعاصٍ ، لكنَّ تَرْك السيئة خوفاً من الله يُكتب حسنة ، باعتبار أن ذلك الترك إنما هو بمثابة التوبة ، وهي تُذْهِب السيئات ، وتُعْقِب الحسنات.

فعن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال اللهُ تعالى: إذا تحدَّث عبدي بأن يعمل حسنةً ، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل ، فإذا عَمِلها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها. وإذا تحدَّث بأن يعملَ سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملْها ، فإذا عَمِلها فأنا أكتبها له بمثلها»[2].

وصحيح أنَّ الإنسان مسؤول عما يصدر عنه من أقوال ، وهي مسجَّلة له أو عليه ، غير أنَّ ما يجري به اللسان عفواً ، ومِنْ غير قَصْد ، فالله تعالى لا يُحاسب عليه ، ولا تجب فيه الكفَّارة. قال عز وجل: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ولا تنحصر مسؤولية الإنسان على نفسه ، بل تمتدَّ امتداداً عريضاً يشمل

---

(١) المفهم (٧/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣١٥) ومسلم (١٢٩).

الأسرة والمجتمع ، فالمسؤوليات كثيرة ، كالأولاد ، والزوجة ، والوالدين ، والأقارب ، والجيران ، والآخرين . . . وللوالدين حق واجب على أبنائهما ، فأمر اللهُ عز وجل بالإحسان إليهما ، والبِرِّ بهما ، وقَرَن شكرهما بشكره ، فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

ومن المسؤولية المناطة بالأولاد تجاه والديهم:

(أ) حُسْن صحبة الوالدَيْن؛ لاسيما الأم ، إذ أولاها الإسلام بدرجاتٍ ثلاثة فوق درجة الأب ، فعن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، مَنْ أحقُّ الناس بحُسْن صحابتي؟ قال: «أمُّك». قال: ثم مَنْ ؟ قال: «أمُّك». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أمُّك». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أبوك»[1].

(ب) بِرُّ الوالدين بعد وفاتهما؛ فعن مالك بن ربيعة السَّاعدي ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ إذْ جاء رجلٌ من بني سَلَمة ، فقال: يا رسول الله ، هل بقي مِنْ بِرِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم ، الصَّلاةُ عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما مِنْ بعدهما ، وصِلة الرحم التي لا تُوصَل إلا بهما ، وإكرام صديقهما»[2].

(ج) قضاء النَّذْر عن الوالدين؛ فعن ابن عباس قال: استفتى سَعْدُ بن عُبادة رسولَ الله ﷺ في نَذْرٍ كان على أُمِّه تُوفِّيت قبل أنْ تقضيه ، فقال: «اقْضِه عنها»[3].

(د) الحج عن الوالدين الميتين ، أو أحدهما؛ فعن ابن عباس قال: كان

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٩٧) وأبو داود (٥١٤٢) وابن ماجه (٣٦٦٤) وابن حبان (٤١٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٥).

(٣) رواه البخاري (٦٦٩٨) ومسلم (١٦٣٨).

الفَضْلُ بن عباس رَدِيف رسول الله ﷺ ، فجاءتِ امرأةٌ من خَثْعَم ، فجعل الفَضْلُ ينظر إليها وتنظر إليه ، وجعل النبيُّ ﷺ يَصرف وَجْهَ الفَضْل إلى الشِّقِّ الآخر ، فقالت: يا رسول الله ، إنَّ فريضة الله على عباده في الحج أدركتْ أبي شيخاً كبيراً ، لا يثبتُ على الراحلة ، أفأحجُّ عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حَجَّة الوداع[1].

(هـ) صِلَة الوالدين المشركين؛ فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: قَدِمَتْ عليَّ أمي ، وهي مشركة في عَهْد رسول الله ﷺ ، فاستفتيتُ رسولَ الله ﷺ ، قلتُ: قَدِمَتْ عليَّ أمي وهي راغبةٌ أفأصِلُ أمي؟ قال: «نعم ، صِلي أُمَّكِ»[2].

أمَّا مسؤولية الوالدين نحو أبنائهما فكبيرة عظيمة ، وأهمُّها حُسْنُ التربية ، فيقوم الوالدان بعملية التعليم المستمر ، والتوجيه الدائم؛ لتكوين النشء تكويناً صالحاً ، وفق منهج إسلامي أصيل ، على مختلف الأصعدة: الفكرية ، والروحية ، والجسمية . . .

«وللوالدين أثر كبير في عنايتهم بأبنائهم ، وتحديد خصال السلوك ، ومستوى النشاط ، وحساسية الإثارة ، فكثيراً ما نلاحظ تفرقةً بين الأطفال في معاملتهم ، وهذا راجعٌ بالدرجة الأولى إلى الأهل. وأهمُّ عملٍ يقوم به الوالدان هو الضَّبْط السلوكي؛ الذي يترك آثاره واضحةً على الأبناء؛ لأنه يؤدي للتوجيه في سلوك الطفل ، وفي شخصيته؛ مِمَّا يحافظ على احترام الذات ، وإشعار الطفل بأنه يفعل الخير والصواب»[3].

ومِنَ المسؤولية التي يقوم بها الوالدان تجاه أبنائهما: التسمية الحسنة ، وإرضاع الطفل الصغير ، وتربية الأولاد بالرحمة والعطف ، ومداعبة الأولاد ، والترويح عنهم ، وتعليمهم الرياضة ، وإكرامهم ، وتأديبهم ،

---

(١) رواه البخاري (١٥١٣) ومسلم (١٣٣٤).
(٢) رواه البخاري (٥٩٧٩) ومسلم (١٠٠٣).
(٣) حق الوالدين على الأبناء ، ليوسف علي بديوي (٩ ـ ١٠).

وتعليمهم آداب الطعام وغيرها من الآداب العامة ، وتوجيههم لأداء الصلاة ، والتحلّي بمكارم الأخلاق كالصدق ونحوه ، مع ضرورة الإنفاق عليهم ، والعدل بينهم ، وضرورة تجنيبهم الظواهر القبيحة؛ كالسباب والشتائم ، والميوعة ، والتدخين.

ويسعى الإسلامُ لبناء الأسرة السعيدة الصالحة ، فشرع اللهُ تعالى الزواج ، ووضع الأسسَ الصحيحة لاختيار الزوجة والزوج على مرتكزاتٍ من التقوى والخُلُق القويم ، فقال الله عز وجل: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٢].

وحدَّد القرآنُ الكريم حقوق وواجبات الزوجين على أساس التساوي ، انطلاقاً من مبدأ المسؤولية فقال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وتقومُ مسؤولية الرجل تجاه المرأة على إعطائها حقوقها كاملة ، سواء أكانت مادية أم معنوية. ومن الحقوق المادية: المهر ، والنفقة ، والسكن ، ومِنَ الحقوق غير المادية: حقُّها في اختيار شريك حياتها ، ومعاشرتها بالمعروف والإحسان والرحمة ، وصَوْنها عن كلِّ ما يُدنّسها ، والغَيْرة عليها ، ومجامعتها بقصد العفة له ولها ، وبالتالي ترتفع لتكون عبادة ، مع ضرورة تطييب خاطرها ، وإدخال البهجة إلى نفسها ، وإكرامها ، والابتسام لها ، وممازحتها باعتدال ، مع التزيُّن والنظافة من قِبل الرجل.

أمَّا مسؤوليةُ المرأة تجاه زوجها فتتمثَّل في طاعته في الخير ومِنْ غير معصية؛ لما وهبه تعالى من حق القوامة عليها ، كما عليها حِفْظ ماله ، وتدبير شؤون البيت ، وتربية الأولاد ، وتهيئة أسباب الراحة ، وعليها ألاَّ تُدْخِل أحداً إلى بيته إلاَّ بإذنه ، كما نهى ﷺ أن تصوم المرأة وزوجها مقيم عندها إلا بإذنه ، ويُستحبُّ للزوجة أن تتزيَّن لزوجها دون مبالغة أو شطط ، مع إعانته على خيري الدنيا والآخرة.

وقد أجمل رسولُ الله ﷺ مسؤولية الزوجين في حَجَّة الوداع فقال: «ألاَ

واستوصُوا بالنساء خيراً ، فإنَّما هُنَّ عَوان عندكم ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلاَّ أن يأتين بفاحشةٍ مُبَيِّنة ، فإنْ فَعَلْنَ فاهجروهنَّ في المضاجع ، واضْربوهن ضَرْباً غير مُبرِّح ، فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً . أَلاَ إنَّ لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فأمَّا حقكم على نسائكم فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم مَنْ تكرهون ، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون . أَلا! وحقُّهن عليكم أن تُحْسِنوا إليهن في كسوتهنَّ وطعامهنَّ»[1] .

وتتوزع المسؤولية الاجتماعية على نطاق واسع ، يشمل أفراد المجتمع كلهم ، القريب منهم والبعيد ، وسنتحدث عن مسؤوليتين اثنتين ، هما: مسؤولية الجار ، ومسؤولية المسلم تجاه المسلم الآخر .

فعندما تحدَّث القرآنُ الكريمُ عن حقوق الجيران ، أكد على أهميتها ، وحرص على أن تكون حسنة ، فقال: ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦].

والأحاديث حول الجار كثيرة ، ومنها:

* عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَحْسِنْ إلى جارِكَ تكنْ مؤمناً»[2] .

* وعن ابن عمر وعائشة قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «مازال جبريلُ يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه»[3] .

* وعن أبي هريرة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جاره»[4] .

---

(١) رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١).
«عوان عندكم»: أسرى بين أيديكم.
(٢) رواه أحمد (٣/ ٣١٠) والترمذي (٢٣٠٥) وابن ماجه (٤٢٣٧).
(٣) رواه البخاري (٦٠١٤ و٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٤ و٢٦٢٥).
(٤) رواه البخاري (٦١٣٦ و٦١٣٨) ومسلم (٤٨).

* وعن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما آمن بي مَنْ بات شبعان وجارُه جائعٌ إلى جَنْبه وهو يعلم»[1].

وتأتي المسؤولية الاجتماعية لتمتّن صِلات المودَّة ووشائج التآخي بين المسلمين، كما أنَّها تُوثِّق الروابط بين الناس، وتُظْهِر المجتمعَ وحدةً متكاملةً، تُؤدَّى فيها الحقوق، وتُنفَّذ الواجبات، من خلال مسؤولية كل فردٍ تجاه الآخرين.

وللمسلم على المسلم حقوق كثيرة، مِنْ: إفشاء السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدَّعوة، وتشميت العاطس، والنصحية، وإبرار القسم، ونَصْر المظلوم، وغير ذلك من الحقوق الواجبة في حق المسلم على أخيه المسلم.

قال رسولُ الله ﷺ: «حَقُّ المسلم على المسلم ست» قيل: وما هُنَّ يا رسولَ الله؟ قال: «إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه، وإذا دعاكَ فأَجِبْه، وإذا استنصحك فانْصَحْ له، وإذا عطس فحمد اللهَ فشمِّتْه، وإذا مَرِض فَعُدْه، وإذا مات فاتَّبِعْهُ»[2].

وكل المسؤوليات السابقة وغيرها يترتَّب عليها جزاء معين بحسب نوع العمل والموقف الذي اتخذه الإنسان، وهو يراقب ربَّه عز وجل فيما يأتي ويذر، وفي مختلف الأحوال والأوقات، وفي السِّرِّ والعلن، فيعلم أنه مُثاب على ما يفعله من الخير، ومعاقب على ما يجني من الشر، وهذا الشعور هو الذي يضبط السلوك، ويُوجِّهه عند المؤمن الذي يدرك أن الله تعالى مُطَّلع على كل صغيرة وكبيرة، قال الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩][3].

---

(١) رواه الطبراني والبزار كما في مجمع الزوائد(٨/ ١٦٧).

(٢) رواه البخاري (١٢٤٠) ومسلم (٢١٦٢).

(٣) ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: النظرة الخائنة إلى ما لا يحلّ.

ويفصلُ القرآنُ الكريم بين الأبرار والأشرار؛ انطلاقاً من مبدأ العدل الإلهي ، قال عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١][1].

ويمكن أن نميز بين نوعين من الجزاء ، أحدهما في الدنيا ، والثاني في الآخرة. وأهمُّ جزاء دنيوي يتلقاه المؤمنون هو معيَّةُ الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩]. ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]. ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

أمَّا الكافرون فموعودون بالذل ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠]. ومشمولـون بالخزي ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢] ﴿ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥].

كما رتَّب اللهُ عزَّ وجلَّ الرشد للذين حملوا أعباء الوصول إلى الله تعالى، فلم ينكصوا ، ولم ييأسوا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وهؤلاء سوف يهدي اللهُ قلوبهم ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١] وسوف يُبدِّد ظلماتهم ، ويوصلهم إلى النور: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ولا يقتصر الأمرُ على الجزاء الدنيوي ، بل يمتدُّ ليشمل الجزاء الأخروي السَّرمدي الدائم ، حيث تتوقَّف السعادة والشقاء على مدى الالتزام بمنهج الله ، وتربية القرآن ، وأوامر الشارع العظيم ، مراعاةً ليوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. قال عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٥ ـ ١٠٨].

---

(١) ﴿ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾: اكتسبوها.

بينما عُصاة المؤمنين يخرجون من النار ويدخلون الجنة ، كما في حديث رسول الله ﷺ: «يخرجُ مِنَ النار مَنْ قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار مَنْ قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ما يزن ذَرَّة»[1].

وإذا استقرَّ أهلُ الجنة في الجنة ، وأهلُ النار في النار ، وأُعْلِن أن حياتهم باقية على هذا الشكل ، فَيْسرُّ المؤمنون ، ويزداد حزن الكافرين. قال ﷺ: «إذا صار أهلُ الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، جِيء بالموت حتى يُجْعَلَ بين الجنة والنار ، ثم يُذْبَح ، ثم يُنادى: يا أهلَ الجنة خلودٌ ولا موت ، ويا أهل النار خلودٌ ولا موت ، فيزداد أهلُ الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»[2].

وعندما يشعر الإنسانُ بأنه مسؤول يوم القيامة على ما قدَّم من خير أو شر ، فإن هذا الشعور يحفزه إلى إتقان عمله ، وجَعْله أكثر جودةً ، وأخلص هدفاً ، وأنبل مقصداً ، وأشدَّ استحضاراً لأهوال يوم القيامة؛ الذي يُنصب فيه ميزان الحق والعدل ، وتُنْشَر صحف الأعمال ، ويُساق الناس زمراً إما إلى ظلال الجنة وإما إلى عذاب النار. وكل هذا يدفع المؤمن ليُحاسب نفسه ، ويتّقي ربَّه ، وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

كما أن الجزاءَ في اليوم الآخر يُقوِّم السلوك الإنساني ، ويُربّي النفس لتَقبِل نحو الخير؛ مهما اشتدت الخطوب ، وغَلَت التضحيات ، وبالتالي يُحْجِم عن ممارسة الشرور والآثام ، مهما بدا طريقها سهلاً معبَّداً. فمن فَعَل الخير نال الجزاء الوفير ، وقال يوم القيامة: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٠] فيرفل في أثواب السعادة ، ويحمد ربَّه عز وجل

---

(١) رواه البخاري (٤٤) ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠).

أنْ وفَّقه لصنع الخير: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١ ـ ٢٢].

ويبقى الإنسان يتهادى بين الأمل والرجاء، وبين الخوف من الله عز وجل والشفقة من كونه لا يعرف أيّاً من أعماله قد قُبِل، وأيّاً منها قد رُفِض، فالأمرُ يتعلَّق بالنية، وحُسْن التوجُّه، وسلامة القصد، وإخلاص القلب لله عز وجل، ومع ذلك فإن الإنسان لا يخضع لنزعات الشيطان، وأهواء النفس، وضلالات الطريق، ومتاهات الغفلة عن الخالق، فمن صفات المؤمن أنه يحيا في جهادٍ مستمر، ومدافعة دائبة، تملؤه الشفقة من خشية الله، ويتعاوره الحذر إلى جانب الاستشراف والتطلع لبناء حياة أفضل، وأعمال أزكى، وحيازة مرتبةٍ أعلى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١][1].

ومن هنا تقوم تربية المؤمن على الخوف من الخالق، والرجاء فيه، والرغبة في نيل الجنة، والرهبة من عذاب النار، وقد أفلح مَنْ بذل جهده، وأخلص قلبه، وشكر ربَّه.

* * *

(١) ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: خائفة ألا تُقبل أعمالهم.